

الأدب العربي، السنة الحادية عشرة، العدد الأول

ربيع و صيف ١٣٩٨هـ.ش - ٢٠١٩م

جدلية الأنا و الآخر في أدب الرحلات بين إيران و مصر دراسة مقارنة بين السفنرنامه لميرزاصالح الشيرازي و تخلص الإبريز لطحطاوي

عبداله حسيبي*

أستاذ مساعد في اللغة العربية و آدابها بجامعة خوارزمي

سيد عدنان اشكوري

أستاذ مساعد في اللغة العربية و آدابها بجامعة خوارزمي

صفحة: ١٣٣-١٥٢

تاريخ الإستلام: ١٣٩٦/٠٧/٠٥هـ.ش، تاريخ القبول: ١٣٩٧/٠٢/٠١هـ.ش

الملخص

غالباً ما كانت رحلات الشرقيين إلى أوروبا في القرنين الماضيين بهدف التعرف على آخر التقنيات الصناعية التي توصل إليها الغربيون، ومعرفة ما إن كان بالمقدور جلب شيء منها إلى الشرق أملاً في كسب التطور المنشود. ومن خلال نظرة خاطفة إلى ما دون في كتابات الرحالين، نجد أنّ الغالبية العظمى منهم قد انبهروا بالتطور الذي أحرزه العالم الغربي، ورغم أنّ هذه المقارنات لم تكن لتخلو من الحقيقة إلا أنّها جاءت مغالية مفرطة وانبهارية إلى حدّ كبير. وقد ظلّ هاجس «الأنا» الشرقي و«الآخر» الغربي يسيطر على عقلية كثير من الرحالين، لكنّ عدداً من هؤلاء اتّزنوا في إصدار أحكام في هذه الجدلية. تسعى هذه الدراسة وبحسب المدرسة السلافية إلى عقد مقارنة بين رفاة الطحطاوي المصري، وميرزاصالح الشيرازي الإيراني، في كتابيهما «تخلص الإبريز في تلخيص باريز» و«سفرننامه»، مؤكّدة على الجدلية القائمة بين الأنا الشرقية والآخر الغربي. واستنتجت أنّ كليهما وجد النظام السياسي المستبدّ في الشرق هو السبب الأساس للتخلف الذي تعيشه البلدان الشرقية، بالإضافة إلى تغشّي الجهل والخرافات لدى الشعوب الشرقية. لكنّ ميرزاصالح كان أكثر افتناناً بالثقافة الأوروبية من الكاتب المصري، الذي وصف الغرب بسلبياته وإيجابياته، بالإضافة إلى أنّ لغة الخطاب عنده تمتاز برصانتها الأدبية أكثر منها عند الميرزاصالح. يصور طحطاوي الغرب بنمطه الأدبي القوي ويضخمه في معطياته ولكنه بصورة ضمنية يشير إلى فضل الشرق على الغرب في مظاهر تمدّنه أما ميرزاصالح فهو يضحك في تصوير الآخر الغربي بالنسبة لأنا الشرقي الإيراني و يحفل كتابه بالمواقف التي مرّ بها صاحبها مع الآخرين وما أصابه من حوادث وأفراح بينما أعرض رفاة عن مثل هذه الأمور وأثر أن يكون محللاً واصفاً دون الخوض فيها.

الكلمات الدللية: الأدب المقارن، أنا والآخر، أدب الرحلات، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، رفاة

الطحطاوي، سفرننامه ميرزاصالح شيرازي.

*. الكاتب المسؤول: dr.abd.hoseini@khu.ac.ir

١. المقدمة

عرف الإنسان الرحلة والسفر منذ فجر التاريخ، فقد استهواه كشف الآفاق وسبر أغوار الأرض بالإضافة إلى الحث الذي ألقته تعاليم الديانات السماوية على السفر والترحال. ولد الإنسان راحلاً، وإن أعجزته الرحلة، تحيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال ونجد ذلك ماثلاً في الأساطير الأولى (ضيف، ١٩٨٧م: ٧). بل صار أدب الرحلات واحداً من الأنواع الأدبية منذ فترة ليست بقصيرة في كل آداب العالم؛ إذ يرتبط الاهتمام الحضاري بالغير ببروز دوافع وقيام حاجات حيوية تدعو إلى الاغتراب عن الحضارة الأصلية لاستجلاء حضارة الآخر، وجمع البيانات والوثائق عنها. هذه الحاجات هي التي تسبب التعرف على حضارة الآخر وإهتمام المستغرب بها بالغ الإهتمام.

وقصة الاتصال بين الغرب والشرق هي قصة هذه الحاجات والدوافع. فبعد الانتكاسات العسكرية التي مني بها عالم الشرق الإسلامي في أولى مواجهاته مع الغرب الذي تمكن من قطع شوط ملحوظ في التقدّم الصناعي بفعل النهضة العلمية، بدأت الحكومات الشرقية بإيفاد عدد من الناهجين إلى أوروبا ليطلعوا على أسباب التطور وآلياته وليلمّوا بما يروونه ضرورياً لبلداتهم، عسى أن يعوّض ذلك عن جانب من التخلف عند الشرق. وأول شيء شغل هؤلاء الموفدين، هو التعرف على مكان الضعف في بلداتهم والبحث عن مفرقات العالم الجديد وأسبابها. لذلك اصطبغت مذكراتهم التي نشرها فيما بعد بالمقارنات العديدة التي عقدوها بين الأنا الشرقية والآخر الغربي.

مقارنات لم تكنف بالقضايا التقنية والصناعية، بل تجاوزتها إلى طبيعة المجتمعات الغربية في اقتصادها واجتماعها وأخلاقها وكل شؤون الحياة. ورغم أنّهم بذلوا سعياً وافراً لإضفاء الموضوعية والحيادية في أحكامهم، لكنهم لم يتمكنوا من التخلص من رواسب الإندهاش خاصة فيما يتعلق ببعض الخطوط الحمراء في بلدانهم، الأمر الذي جعل أصابع الاتهام بالتفرنج والثورة على القيم والمبادئ والأعراف القومية والدينية تتجه إليهم. ولعلّ هذا الخلاف بين التطلع إلى الآخر الغربي والتزمت الشرقي مازال قائماً في مجتمعاتنا إلى يومنا هذا، ممّا يقتضي أن نتعامل مع دعوات التحرر على النمط الغربي أو الصمود أمام الظواهر الإفرنجية بشيء من الحيادية والموضوعية العلمية.

في هذا الصعيد يستوقفنا كل من الرحّالين المصري رفاعه الطهطاوي (١٨٧٣م) بكتابه تلخيص الإبريز في تلخيص باريز والإيراني ميرزا صالح الشيرازي (مجهول الوفاة) بكتابه سفرنامه. فقد

وصف الأول رحلته إلى فرنسا، ووصف الثاني رحلته إلى انكلترا فضلا عن حديثه عن بعض البلدان التي مرّ بها في طريقه إلى لندن. فإنّ وجوه الشبه بين مواقف هذين الرجلين تكاد تكون واضحة، ومن الطبيعي أيضا أن نجد بعض المفارقات في تعاملهما مع الغرب. ممّا يدعونا إلى عقد مقارنة بين الكتابين، من نواحٍ عدّة؛ أهمّها موقف المثقّف المصري والإيراني تجاه الآخر الغربي، ولغة الخطاب في الكتابين، وما خلّفه كلّ من الكتابين من أثر في عقلية المثقّفين من أبناء البلدين، وقضايا أخرى لا يسمح لنا المجال أن نتحدّث عنها جميعها.

أمّا الطهطاوي فكثير من كتبوا عنه، لأنّه يعدّ بحق نقطة الإنطلاق في النهضة العربية المعاصرة و من روادها و أقطابها. فلذلك تناولوا آثاره كلّها بالدراسة، وبخاصّة كتابه *تخليص الإبريز في تلخيص باريز* الذي أدرج فيه ملاحظاته عن الآخر الغربي بشيء من الموضوعية وحاول جهد إمكانه ألا يقع فريسة الأحكام المسبقة وأن لا يخرج عن الحيادية العلمية. فقد وقف أكثر الكتاب والنقاد موقفاً مناصراً للطهطاوي وانفرد بعضهم يعرّض بآرائه ويفنّد إعجابه بالآخر الغربي. ولعلّ أكثر من تناول موضوع الآخر الغربي في *تخليص الإبريز* هو العلوي رشيد في مقال له نُشر على شبكة الإنترنت تحت عنوان «صورة الآخر في الوعي العربي الحديث» حيث يشير إلى الطهطاوي لعدّة اعتبارات؛ فهو أول من تأمل الغرب في دياره خلال العصر الحديث؛ وطبيعة الصورة التي رسمها عن هذا الغرب، تتم عن رؤية تقديمية تعبر عن حسه النقدي وعن انفتاح قلّ نظيره مقارنة بالتصورات الكلاسيكية التي تعجّ بها الرحلات في العصور الوسطى وما قبلها؛ ودعوته العرب والمسلمين إلى الانفتاح على الغرب وعلومهم وتحضّرتهم لتجاوز واقع التخلف والانحطاط الذي يعيشونه؛ ووعيه المبكر بعمق إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر، وقد حاول العلوي أن يضيف على البحث صبغة علمية حيادية جهد إمكانه، لكنّه وعلى أيّة حال لم ينظر إلى الواقع المقارن بين البلدين إيران ومصر. وممّن تناول الموضوع، محمد محمدحسين في كتابه *الإسلام والحضارة الغربية*، حيث يقسو على الطهطاوي ويصفه بالمفتون الذي أدرك كثيراً من سلبات الغرب، لكنّه لم يستطع أن يدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعدّدة لكلمة الحرية، ولم يستطع أن يدرك أنّ نقل هذه الآراء إلى المجتمع الإسلامي يمكن أن ينتهي به إلى النتيجة نفسها: نبذ الدين، وتصفيه رجاله والخروج على حدوده.

أمّا بالنسبة إلى ميرزا صالح الشيرازي فقد كتبت صفورا برومند، تصفه وأقرانه من أدباء الرحلات بأنهم حاولوا أن يثيروا إنتباه الإيرانيين نحو الفارق الشاسع بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية و

الإحاطة بأسباب هذا الاختلاف في المستوى. و كتب مهدي كلهر في شبه ثورة على الانبساطية التي منيت بها الشريحة المثقفة آنذاك بأنها استسلمت للغرب منبهرة بمفاته و من دون تمحيص لأسباب الرقي الحضاري، و أنّها هي التي جلبت إلى الشرق نزعة التطرف في مقارعة كلّ ما يمتّ بصلّة إلى الغرب، فمني أبناء الشرق بالإفراط و التفریط المنبوذين. وقد قام الباحثان حسين ميرزا بي وأمين پروين، بدراسة شبه إحصائية لمفردات الاستلاب و الرفض عند ميرزا صالح، ليخلصا إلى نتيجة أنّه لم يصمد أمام تيار التطور الحضاري العاتي الذي أحرزه الغرب و ذلك من خلال تعابير الإعجاب التي صدرت منه بشكل عفوي و صادق. وأكثر تلك الدراسات لا تخلو من موضوعية علمية و تحليل حيادي، إلا أنّنا بصدد الجانب المقارن بين الرحالين الإيراني و المصري، والذي يكشف عن ملاسبات النظرة الشرقية الإسلامية -عربية كانت أو إيرانية- إلى الأنا الشرقية و الآخر الغربي. وهو ما حاولت دراستنا هذه أن تضطلع به. بالإضافة إلى عقد مقارنة في لغة الخطاب و أسلوب الإخراج الفني و العلمي للكاتبين.

يرمي البحث إلى التعريف بكتابي التخليص و سفرنامه من خلال المواقف المتبناة من الكاتبين تجاه الآخر الغربي، و التعرف على الجانب الوصفي التصويري الذي اعتمده كلّ من الكاتبين في حديثهما عن العالم الجديد، و التعرف على وجوه المفارقة في مواقفهما، لنستجلي في نهاية المطاف القواسم المشتركة و الاختلافات بين المجتمعين المصري و الإيراني في جدلية الأنا الشرقي و الآخر الغربي. وقد تمّ اختيار الكاتبين المذكورين لكونهما من باكورات الرحلة الشرقية إلى الغرب في القرن التاسع عشر، و لأنّهما من طلائع الانفتاح على الغرب في حقبة زمنية قريبة و نحن في هذا البحث بصدد الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ماهي العلاقات المشتركة الفكرية بين طحطاوي و ميرزا صالح الشيرازي في رحلتيهما فيما يرتبط بالقضايا الوطنية الشرقية؟

٢. كيف بصور كل من طحطاوي المصري و ميرزا صالح الإيراني الآخر الغربي بعد لقائهما؟ تصويراً بشعاً؟ أم مغالياً في تطوره؟ أم مضحماً لمعطيته و أهله؟

٣. ما موقف الكاتبين من الغرب؟ أهو موقف انفعالي أم رافض أم موقف متسامح؟

٤. في أيّ القضايا حاول الكاتبان التنكّر للعادات الشرقية و في أيّ منها بقيا ملتزمين بالتقاليد و السنن؟

٥. ماهي مظاهر الإبداع الأدبي السردّي لدى كلّ منهما؟

- والفرضيات التي نريد إثباتها كما يلي:
- يعتقد الباحثان أنّ العلاقات الفكرية بين طهطاوي والشيرازي تكاد تكون مشتركة وخاصّة في اتخاذ المواقف المناصرة والمناهضة تجاه الآخر الغربي في قضايا السياسة والاجتماع والاقتصاد والأعراف والتقاليد.
 - و أنّهما رغم سردهما الذي نظّنه صادقا من صميم الواقع لم يسلموا من حالات التضخيم للآخر الغربي لما حقّقه من تطوّر علمي مقارنة بالشرق.
 - أنّهما دعوا بنسب وبأساليب مختلفة إلى التحرّر من العادات الشرقية، والانفتاح على الآخر الغربي.
 - أنّهما دعوا إلى نبذ ما يريانه خرافات شرقية ودعوا إلى سنّ القوانين التي تحدّ من سلطة المستبدّين.
 - أنّ لغة الخطاب عند طهطاوي نظراً لسمعته في عالم الأدب المصري تفوق مثيلتها عند ميرزاصالح الشيرازي لكونه مغموراً في الأوساط الأدبية الإيرانية آنذاك.
- لقد استفدنا في هذا البحث ممّا يلائمه من مناهج نقد الأدب المقارن وهو منهج المدرسة السلافية في النقد الأدبي المقارن، بكل ما فيه من مكونات وطنية وتنوعات في الفضاءات. فهي تدخل في الجدلية التاريخية وتتخذ نزعة إنسانية وتهتمّ بأبعاد التراث الثقافي الكلي. وقد لخصت مواقف المدرسة السلافية بأنّها تهتمّ أولاً: بالعلاقات المباشرة بين الآداب، ذات المناخ الوطني بعناصرها المحددة ومشاكل التأثيرات و المصادر، ثانياً: بدراسة الموازنات خارج العلاقات والتأثيرات والمصادر. وثالثاً: بدراسة الطوابع الخاصّة لمختلف الآداب كموضوع للمقارنة. (علوش، ١٩٨٧م: ١٣٠ و ١٣٣) ويصبح المنهج المقارن السلافي^١ طريقة لنضج المعالجات والتنظيرات الأدبية التي تتعلق بالقضايا القومية المشتركة. ولم يتأثر الطهطاوي وميرزاصالح ببعضهما في رحلتيهما لكننا نحاول أن نناقش العلاقات المشتركة الذهنية والفكرية الوطنية بالنسبة للشرق بينهما واشتراكات واختلافات مواقفهما بالنسبة للغرب وتطوره آنذاك.

٢. أدب الرحلات في مصر و إيران

الرحلة تعني الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين، ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا، أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السفر. (الصعدي، ١٩٩٦: ١٥) وأدب الرحلات يدعي أنه ينقل الحقيقة لا شبهها، وينقل الواقع لا المحتمل. إنه أدب التحقّق، الرواية التي يمكن

للقارئ أن يتحقق من شخصياتها، و زماها، ومكانها، ومدتها وأن يتعرف شخصية بطلها و رفاقه في رحلته. ولقد ساهم الرحالة في كتابة التاريخ وتقدم الحضارة وكثيرا ما نجد عند الرحالة العرب المحدثين هذا الهم الذي يحولهم إلى مصلحين اجتماعيين و إلى دعاة تغيير للعادات والنظم الاجتماعية والسياسية (زيتوني، ١٩٩٦م: ٢٥٥).

٢-١. أدب الرحلات في مصر

من الملاحظ أنّ بعض الأدباء المعاصرين العرب وخاصة المصريين الذين عُرفوا ككتاباً للرواية أو للقصة القصيرة أو للمسرح أو للمقال، قد حصلوا على جوائز الدولة لا بسبب إبداعهم في هذه الفنون الأدبية وإنما لتفوقهم في أدب الرحلات. من هؤلاء الكتاب خيرى شبلي الذي حصل على جائزة الدولة عن كتابه *فلاح مصري في بلاد الفرنجة* والكاظم أنيس منصور في كتابه *حول العالم في ٢٠٠*، ومحمود تيمور في *أبولهول يطير* و فاروق خورشيد في كتاب *بلاد سندباد* ومحمود السعدني في كتابه *الموكوس في بلاد الفلوس* وحسين فوزي في كتاب *سندباد إلى الغرب* وإن الذي يقرأ هذه الكتب الحديثة والمعاصرة التي جاءت بعد رفاة الطهطاوي وخيرالدين التونسي وأحمد فارس الشدياق وطه حسين وتوفيق الحكيم يلاحظ تطور وانتشار هذا اللون من الكتابة النثرية في الأدب العربي الحديث (النساج، ١٩٨٤: ١٥١٤). أمّا الرحالة المحدثون فقد قصدوا أوروبا بغية الكشف عن سر تقدمها، والتدبر فيما يساعد الأمة الإسلامية على النهوض من كبوتها والاستيقاظ من غفوتها الطويلة (فهيم، ١٩٨٩: ٩٥). أما القيمة الأدبية في الرحلات فتتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني. وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى» (حسين، ١٩٨٣: ٨ و ٩).

٢-٢. أدب الرحلات في إيران

أمّا الأدب الفارسي فقد شاع فيه تسجيل وقائع السفر والمشاهدات والاستماع خلال الرحلة منذ زمن قديم كما في سفرنامه ناصر خسرو القبادياني، ولكن كتابة الرحلات بمعناها الجديد -من الشرق إلى الغرب- فقد بدأت من أوائل العصر القاجاري (ياحقي، ١٣٩١: ٣٢٨) في عهد فتحعلي شاه حيث بعث وصيه عباس ميرزا بعض الموفدين للاطلاع على كتابات الرحالة الغربيين

وأهميتها، ومالها من دور مؤثر في رسم سياسات الغرب تجاه الشرق فبدأوا بتدوين تقاريرهم السياسية والاجتماعية، وكان أول تقرير مكتوب أثر في المد التنويري في الفكر الإيراني كتاب حيرت نامه لميرزا ابوالحسن خان الشيرازي ثم تلاه رضا قلي خان هدايت بكتاب سفارت نامه خوارزم وفاقه في تنمية الجهاز الدبلوماسي الإيراني إلى حد كبير (پناهى، ١٣٨٧: ٨١) ولعلّ إيران أول بلد شرقي أرسل البعثات العلمية إلى الغرب، حوالي ٢٧ سنة قبل إرسالها من قبل مصر و٥ سنوات قبل إرسالها من اليابان، وذلك للاطلاع على الحضارة الغربية وعلومها وفنونها الجديدة (مرادي نژاد و پژوم شريعتي، ١٣٥٣: ٩٠).

٣. نبذة عن سيرة ميرزا صالح شيرازي

هو ميرزا محمد صالح ابن الحاج باقر الكازروني الشيرازي (محبوبي اردكاني، ١٣٧٠: ١/١٧٦). لم تذكر المصادر التاريخية أي شيء عن مولده ولا عن هجرته إلى أذربايجان (حائري، ١٣٧٢: ٣١٢). كل ما في الأمر أنّ والده كان أحد القادة في الوحدات العسكرية التي كان يرأسها عباس ميرزا (١٨٢٩-١٧٨٢). وقد انخرط ميرزا صالح كأبيه في خدمة ولي العهد، ويبدو أنّه كان يتطلع على شيء من اللغة الإنجليزية فعهد إليه عباس ميرزا مرافقة الضباط الإنجليز الوافدين إلى إيران لتدريب العساكر الإيرانيين (نوابي، ١٣٦٩: ٢/٢٥٩) وقد أوفده عباس ميرزا مع أربعة آخرين ليكوّنوا ثاني بعثة ترسل إلى أوروبا لتعلّم الفنون والتقنيات الحديثة الغربية. وكان ميرزا صالح أكبر هؤلاء الخمسة سنّاً وأكثرهم ثقافة، فعهد إلى تسجيل جميع جزئيات سفره وسمّاها سفرنامه. وقد استغرقت حوالي أربع سنوات من ١٨١٥ إلى ١٨١٩م (كريميان، ١٣٧٧: ٥). وتحدّثنا المصادر عن معارضة بعض أقربائه ورفاقه ومساعدتهم للحيلولة دون رحلته (برومند، ١٣٨٤: ٧٠) أمّا هو فيبرّر موقفه الداعي إلى السفر بالقول: «إن لم يداهمني الأجل فسوف أتعلّم وأتحرّى في الأديان وسوف أتعرّف على معالم ديني من خلال البحث والاستقصاء، وسوف أطلع على شؤون الدهر ثمّ أعود إلى إيران لينتفع بي بعض المسلمين» (شيرازي، ١٣٤٧: ٤٦) وقد بذل قصارى جهوده لاستجلاب مظاهر الحدائث إلى بلده، فأتقن بعض الفنون والعلوم في لندن، ومن أهمّها فنّ الطباعة، وأنشأ أول مطبعة حكومية إيرانية في مدينة تبريز، ثمّ أصدر أول صحيفة بالبلد سمّاها كاغد أخبار وهي على ما يبدو تفرّيس لكلمة «newspaper» الإنجليزية (ابوالحسني، ١٣٩٠: ٤٤) و قد عرف عنه أنّه رجل مثابر، و ذكيّ، متّسم بحب الاستطلاع و التعلّم فبذل قصارى مسعاه لتعلّم الفنون الغربية الحديثة (صوفي نباركي نجفي، ١٣٨٢: ٢/١٧٣).

٤. ملخص سفرنامه ميرزا صالح شيرازي

تشير المصادر إلى أن أول من طبع كتاب سفرنامه ونشره هو ميرزا صالح الشيرازي نفسه. لأنه وكما ذكرنا كان أول من استجلب ماكنة الطباعة إلى إيران. وذلك في عام ١٨٢٠م، ثم نشرت بعض المقتطفات منه في المجلة الشرقية بكونكوتا (برومند، ١٣٨٤: ٧٠). لكنه بقي مغموراً لم ينتشر بين أوساط الناس لعدم تطوّر نظام التوزيع آنذاك. لقد عقد ميرزا صالح كتاب سفرنامه في أربعة فصول؛ أطولها الفصل الثالث الذي تحدّث فيه عن نزوله في انكلترا وإقامته بها. وهو الفصل الذي يتضمّن جلّ موافقه عن الآخر الغربي (شيرازي، ١٣٤٧/٤٨ و ٤٣ و ١٦٢ و ٣٨٩). أمّا النشر المستخدم في كتابة سفرنامه فهو النشر المرسل، إذ حاول ميرزا صالح أن يبتعد كلّ البعد عن التعقيدات البديعية التي كانت سائدة آنذاك في الأدب الفارسي، والنصّ خالٍ تقريباً من الاستعارات والكنائيات والتشبيهات والمجازات الموعلة في التعقيد والصعوبة، هذا فضلاً عن الترادف السخيف والسجع المملّ. فصبّ الكاتب جهده على المعاني دون الألفاظ. ويبدو أنّ ميرزا صالح نفسه لم يكن يتوقّع لكتابه هذا أن يكون له شأن أدبيّ أو تاريخي، ومن هنا فإنّه لم يُعنّ بتنقيح عباراته أو تصحيح بعض الأخطاء الواردة فيه. و من جانب آخر اشتمل كتابه على شيء غير يسير من التكرار المملّ والإطناب الذي لا مبرّر له (شهرستاني، ١٣٧٨: ٥٢). و قد دوّن كتابه على شكل يوميّات يؤرخ لكلّ يوم لكنه كان يخرج أحياناً عن أسلوب سرد اليوميّات والملاحظات ليخوض في تاريخ المناطق التي كان يمرّ بها حسب المصادر التي كانت في متناول يده. و قد تمكّن ميرزا صالح أن يجعل لنفسه مكانة مرموقة لدى ذوي الأفكار النيرة من رجال السلطة، لأنه كان من دعاة الرقيّ وتطوير مناهج التعليم وإحلال مؤسّسات المجتمع المدني، وسيادة القانون، وصيانة الحريّات الفردية (رستگار، ١٣٥١: ٢٤١).

يتضمّن كتاب سفرنامه أسماء كثير من القرى والمدن، ويزوّدنا بمعلومات وافية عنها وعن الأساطير المتجذرة في ثقافتها. وقد تناول بالبحث عن تطور البريطانيين في العلم، وفي الشؤون الإدارية وسياسة البلدان وآخر المجالات كالصناعة، والطباعة، وعلم الكيمياء، والنظام البرلماني، وضرورة سيادة القانون، ومنح الناس الحريّات، ومساهمة الشعب في تقرير المصير من خلال الانتخابات العامة، والحدّ من سلطات الملك وصلحيّاته.

٥. نبذة عن سيرة رفاة طهطاي

ولد رفاة الطهطاي في ١٥ أكتوبر ١٨٠١م بمدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج «جنوب صعيد مصر»، ونشأ في أسرة كريمة الأصل شريفة النسب، جاء في الأعلام للزركلي أنه «رفاعة رافع

بن بدوي علي الطهطاوي، يتصل نسبه بالحسين السبط، عالم مصري، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٣: ٢٩). عندما بلغ رفاة السادسة عشرة من عمره التحق بالأزهر في العام ١٨١٧ (المعوش، ٢٠١١م: ١٤٢) وقد أرسل مع البعثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا كإمام للصلاة فعكف على تعلّم الفرنسية ومطالعة كتب التاريخ والجغرافيا وأسهم كثيرا في إرساء قواعد التعليم الحديث في مصر. وكان له شأن في النهضة المصرية وفي المعترك السياسي بعد عودته إلى مصر إلا أننا عرضنا عن ذكره لعدم سعة المجال.

٦. ملخص تخلص الإبريز في تلخيص باريز لطحطاوي

قيل عن الكتاب إنه «بلا جدال أهمّ وثيقة إنسانية أدبية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو أول مؤلّف عربي في العصر الحديث عن أوروبا» (نجيب، ١٩٧٧: ٤٤). يضمّ التلخيص المقدّمة، وقد جاءت في أربعة أبواب. كما قسم الكتاب إلى ستّ مقالات تكوّن المقالة الثالثة منها الجانب الأعظم من الكتاب وهي في وصف باريس وحضارتها. حيث تطرق في ثلاثة عشر فصلاً إلى تخطيط باريس الجغرافي وعوائد أهلها، وتدير الدولة الفرنسية، وترجمة الدستور الفرنسي وفي مساكن الفرنسيين وعاداتهم في الماكل والمشارب والملابس، كما وصف منزهات باريس، ومدى اهتمام أهلها بسياسة صحة الأبدان وعنايتهم بالعلوم الطّبية والفنون والصناعات. وقد سميت هذه الرحلة بتلخيص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس.

٧. مقارنة جدلية الأنا و الآخر بين تخلص الإبريز و سفرنامه شيرازي

٧-١. الآخر الغربي و فضله على الأنا الشرقي

لقد تأثر ميرزا صالح بتطور المدنية الغربية ولكنه في الوقت نفسه كان ملتزماً بتقاليد ووطنيته ويطغى على كتابه الإعجاب الشديد بالغرب عامّة والإنجليز خاصّة. وفي كلّ مرّة يتحدّث عن إيجابيات الغرب يذكر أنّ الشعوب الغربية إنّما تدين في تطوّرهما إلى سيادة القانون الذي ليس بمقدور أحدهم أن يتخطاه مهما أوتي من قوة وجاه: «إنّ الأمير ريجنت ملك هذه المدينة الحقيقي، قد شيّد زقافا باسمه في أكسفورد استريت. وثمة رجل فقير في هذا الزقاق يمتنّ الصناعة ويمتلك دكاناً متواضعا، وها قد مضى أكثر من ستة أشهر وهم يحاولون إلحاق دكانه بالزقاق إلاّ أنّه يمتنع ويماطل. وليس بمقدور كلّ الجيش أن يسلبوه حقّه ويغتصبوا دكانه» (شيرازي، ١٣٤٧: ٢٠٧) و يشيد بالإنجليز في إدارة البلاد: «وفي العالم لا تجد حكومة مثل الإنكليز في قواعد الإدارة ونظامها والالتزام بتنفيذ

هذه القوانين، فمن الواضح أنهم تعبوا كثيرا وجربوا المشاكل الكثيرة حتى وصلوا إلى هذا الحد من النظام في القوانين الحكومية والإلتزام بتنفيذها في بلادهم» (المصدر السابق: ٣١٩). هذا الموقف شديد الوضوح عند الطهطاوي أيضاً فهو معجب بسيادة القانون، والعدل الغربي، والتزام رجال السلطة بالقوانين الرسمية للبلاد: «ملك فرنسا ليس مطلق التصرف، وإن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين، وديوان رسل العمالات يحامي عن الرعية والقانون الذي يمشي عليه الفرنسيون الآن ويتخذونه أساساً لسياساتهم» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٠٥) و قد نعدر الشيرازي على افتتانه الشديد بالغرب، لو قارنا مدى التخلف الذي كان عليه بلده آنذاك بما لاحظته من أمارات التطور في الغرب. فهو يحدّثنا عن مدى نظافة الغربيين عند تناولهم للطعام: «إنني لأشعر باللذة التامة عندما أكل طعامي معهم» (شيرازي، ١٣٤٧: ٣٣٩) ويقول: «لا تجد أياً من رجالهم أو نساءهم يرتدي ملابس متسخة» (المصدر السابق: ٣٠٤) وهكذا بالنسبة للفارق بين حمامات الغرب وحمامات بلده ونظافة حدائق الغربيين واهتمام رجالهم ونساءهم بإرتداء الملابس النظيفة (المصدر السابق: ١٦٥ و ٣٠٤) أما طهطاوي فإنه يصف هذه النظافة بشيء من الاعتدال قائلاً: «والحمامات في باريس متنوعة وفي الحقيقة هي أنظف من حمامات مصر، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن. ومع ما عند الفرنسيين من النظافة الغربية بالنسبة لبلادنا، فإنهم لا يعدون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة» (طهطاوي، ٢٠١٢: ٤٧ و ٤١).

ويشيد الشيرازي بالنظام التعليمي المتطور ومناهج المدارس عندهم بالتفصيل، ويقارنه بنظام التدريس المتبع لدى الكتاتيب في إيران. (شيرازي، ١٣٤٧: ش: ٢٩٩) وقد أعجب بزوال النظام الطبقي في أروقة المدارس والمعاهد العلمية. وكثيراً ما تطرّق إلى المستشفيات ومراكز العلاج لديهم وما يلقاه المريض من رعاية طبية فائقة. وحينما يعقد رفاة مقارنة بين علوم الشرق والغرب ويحاول أن يحتفظ للشرق بعلومه الإنسانية التي يفوق فيها الغرب، يدعن في نهاية المطاف قائلاً: «إذا نظرت بين الحقيقة رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج، ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا، ومن جهل شيئاً فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء» (طهطاوي، ٢٠١٢: ٢٠) وقد عقد فصلين كاملين في عناية الفرنسيين بصحة الأبدان واهتمامهم بالعلوم الطبية.

٧-٢. الانتماء الوطني و الفكري بين الشيرازي و الطهطاوي

يبدو لنا من خلال متابعة الكتابين أنّ الحسّ القومي والوطني والديني عند رفاة كان أعظم من الشيرازي، إذ كثيراً ما يحتفظ للشرق وبخاصة لمصر بسماحتها التي يراها تفوق تلك التي يحملها

الغرب. فحبّ الوطن مقيم في قلبه وهذا واضح من منهجه الذي اتبعه في المقارنة بين كثير من مشاهداته في أحوال باريس، وبين أحوال القاهرة وهو يفضل وطنه على كل ما سواه (حسين، ١٩٨٣: ٧٧). انظر مثلاً قوله: «فلولا نجامة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم، وحسن تديبرهم، واعتنائهم بتعهد مصالح بلادهم، لكانت مدينتهم كلا شيء... فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران، لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا» (طهطاوي، ٢٠١٢: ٧٦). أمّا الشيرازي فإنّه كان غالباً ما ينقّس عن التخلّف الذي منيت به بلاده بوصف إيجابيات الغرب وحسب، دون أن يشير إلى ما يقابله من سلبيات في إيران. وكأنّه لا يريد أو لعلّه يخشى مغبة التعريض بالشرق لأنّه يتقاضى تكاليف سفره من الحكومة. فالانتماء الوطنيّ عنده إمّا معدوم وإمّا ضعيف. هذا وتحديثنا بعض المصادر عن انتماء ميرزاصالح إلى الماسونية العالمية وعن مساعيه في التأسيس لهذه الحركة في إيران إلّا أنّه كان لديه شيء من الالتزام الديني المتطلّع نحو الحرية ممّا جعل الإنكليز يتنكّرون له فلم يزيقوا إلى المناصب العليا بعد عودته إلى بلده (ساسانپور، ١٣٨٤: ٨٦) ويبدو كذلك أنّه كان متقيداً بزيّه الإيراني رغم ما واجهه من الصعاب في الحفاظ عليه حيث كان مثيراً للسخريّة (شيرازي، ١٣٤٧: ٣٨١) ومن مظاهر شدّة الانتماء عند رفاة أنّه كثيراً ما يفخر بمآثر بلده ويعزف على وتر حبّه له (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٣) ولا يفتأ ينشد المقطوعات الشعرية في مصر:

يا بعيد الدار عن وطنه مفردا يبكي على شجنه
كلما جد الرحيل به زادت الأسقام في بدنه
(طهطاوي، ٢٠١٢: ٢٩)

وفي بعض الأحيان لا يتحدّث عن مظاهر العدل والإنصاف في فرنسا إلّا بعد أن يحدّثنا عن هذه المفاهيم في تاريخ الشرق. وكأنّه يجمع المفهوم الإسلامي والكلمة الفرنسية في تعريفه للحرية (المصدر السابق، ٧٣ و ٧٤ و ٨٠، و قرني، ١٩٨٠: ٣٣). وعلينا ألاّ نبخس ميرزاصالح حقه من حبّ الوطن، فإنّ كتابه لم يخلُ من أمارات الشوق والحنين إلى بلده، لكنّه وبحسب ما سنذكر لم يؤت سعة من العلم ولم يتسنّ له أن يدرس في الحوزات العلمية و المدارس الدينية ليتلقّى براعة التعبير في هويته الوطنية كما ينبغي. لذلك فهو يرى نفسه في مهمّة كُلف بها لا تسمح له أن يخرج كتابه على نمط رفاة. إذ يذكر في كتابه وعلى الرغم من الاستشهاد الشحيح بأبيات من الشعر الفارسي، أنّه أذعن لنصيحة القائم مقام الذي اعتبر الشعر ضرباً من اللغو فأعرض عن الشعر وإنشاده (شيرازي، ١٣٤٧: ١٧٣). ويفنّد رأي ميرزا صالح أن القائم مقام الفراهاني كان واحداً من كبار شعراء عصره، وأنّه لم يفنّد الشعر بل استخفّ الذين انصرفوا إلى الشعر من نوعه الماجن ولم يهتموا بتثقيف

أنفسهم. وهذا ما حمل ميرزاصالح على الإنصراف إلى مهمته وحسب. من جانب آخر كانت له مواقف مقاومة تجاه الانخراط في مجالس الترف واللهو التي كان يجد نفسه مقحما على حضورها فسرعان ما كان يغادرها خشية الإخطاط (المصدر نفسه: ٢٤٣).

٣-٧. موقف الكاتين من سلبيات الغرب

رغم ما رأينا من افتتان ميرزاصالح إلا أنه كان أكثر اعتدالاً من الذين سبقوه من الرحالة من أمثال عبداللطيف شوشتري، وابوالحسن ايلجي ولم تُفتته سلبيات الآخر الغربي. ومن ذلك أن النساء في انكلترا لم يكن بمقدورهنّ المساهمة في عملية الاقتراع فما بالك بالترشح للمجلس النيابي (شيرازي، ١٣٤٧: ٣٢٢) و هذا الموقف أثار استحسان كلهر الذي انتقد ميرزاصالح في كلّ صغيرة وكبيرة، فوصفه بالذكاء و عدم السداجة (كلهر، ١٣٦٩: ١٥١) و في موقف يكاد يكون مشابهاً ينتقد رفاة تأليفة البرلمان الفرنسي: «هذا الديوان مؤلف من عدة رجال ... و الغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقارب الملك، و وزرائه» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٠٤). و لفت هذا الموضوع إنتباه ميرزا صالح أيضاً، فقال: «فقط أصحاب الممتلكات... يستطيعون أن يصبحوا أعضاء البرلمان، و القرويون لا يمكنهم أن يرشّحوا أنفسهم إلا كمستشارين لهؤلاء» (شيرازي، ١٣٤٧: ٣٢٢). و هذا يشير إلى أن نظامهم، نظام رأسمالي، و لا يهتم بالطبقات القروية، و الفقراء، و المساكين في المناصب الحكومية. و من مآخذ رفاة على الغرب تظاهر الناس بالديانة لكنهم ضدّ الكنيسة، إذ يقول عن الفرنسيين: «إن فرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الإسم، فهم يدخلون في الكتابيين، فلا يعتنون بما حرّمه دينهم، أو أوجبه، أو نحو ذلك» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٧٣). أمّا ميرزاصالح فقد انتقد ديانة الملك هنري الثامن (١٥٠٩) الذي تزوّج بسبع نساء فكان يدبّر لكلّ منهنّ المكائد ليطلقها أو يقتلها ليحلّ له الزواج بأخرى بحسب تعاليم المسيحية (شيرازي، ١٣٤٧: ٢٤٨). و في موضع آخر ينتقد أساقفة الكنيسة بشكل صريح فيما عبّر عنه بالتناقض: «يمكن القول باختصار أنّ ما وضعه القساوسة من أسس واهية وقصص كاذبة لخداع الناس لم يكونوا هم ليلتزموا به» (المصدر السابق: ٦٦). و قد قرّر ميرزاصالح أن يتحرّى عقائد هؤلاء ليخرج بنتيجة «أنّ هذا النمط من العبادة - من وجهة نظري - لا يختلف إطلاقاً عن الوثنية... و أيّ من هذه المظاهر لا يتفق مع الحقيقة... إن لم أسمّ هذا شركاً فما هو الشرك إذاً؟» (المصدر السابق: ٦٧ و ٨٢) و ممّا تطرّق له الكاتبان قضية المرأة و منحها من الحرّية ما يتنافى و الحشمة الاجتماعية: «و من خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نساءهم و عدم غيرة رجالهم كيف و الزنا عندهم من العيوب و الرذائل لا من الذنوب الأوائل (ويقصد أن الزنا لا يعدّ عندهم من كبائر الذنوب ومن

أشدها بل مجرد ذنب عادي اجتماعي قبيح» (طهطاوي، ٢٠١٢: ٨٨) و يسرد لنا ميرزاصالح موقف الإنجليز تجاه امرأة شبه عاهرة و تفضيلهم إياها عليه (شيرازي، ١٣٤٧: ٣٨١). و لو سلّمنا بقوة ملاحظة ميرزاصالح في شأن المرأة و حقوقها المهذورة فإننا نرى أنّ التحامل الليبرالي على الكنيسة و المطالبة بحقوق النساء في الاقتراع و الترشيح، كان من أسخن القضايا السياسية و الإجتماعية في الغرب آنذاك. و ثمة مأخذ آخر لميرزاصالح على الغرب. فهو يعتقد أنّ الغرب يبني علاقاته على أساس المصالح، و هذا يستدعي أن نتعامل معه بحذر. فلو اقتضت مصالحه أن يتنكر لأصدقائه أو الواثقين بدعمه و عونته فإنّه لن يتوانى في ذلك و سرعان ما تبدو على سلوكه أمارات الجفاء و الغدر. فوصفهم ميرزاصالح بقوله: «إنّ حكومة الانكليز مصلحية (بنت الوقت) و لا تتعامل معنا إلّا على أساس منطق المصالح» (المصدر السابق، ١٧٣) لكن على كلّ حال فإنّ مواقف ميرزاصالح و رفاة المنتقدة للغرب تكاد تكون كحلقة في فلاة لو قارناها بمواقف الاستلاب أو الإعجاب الذي منيا به. و من الملاحظ أن مواقف الطهطاوي هي الأكثر انتقاداً للغرب كما يقول في مدح كرم الغرب و بخل الفرنسيين: «و ليس عندهم المواسة إلا بأقوالهم و أفعالهم، لا بأموالهم، إذا وثقوا بالمكافأة، و هم في الحقيقة أقرب للبخل من الكرم.. و في الواقع حقيقة السبب في ذلك هو أن الكرم في العرب» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٤٩) لكنّ طهطاوي و خلافا للموقف المتماهي الذي نجده عن ميرزا صالح يحاول أن يعوّض عن الفارق بذكر منقبة من مناقب الشرق الإسلامي بعد كثير من مواقف التمجيد بالغرب. فإن لم يجد تلك المنقبة في حاضر الأُمَّة، بحث عنها في ماضيها فأشاد بمفاخر الأقدمين وما كان للمسلمين من أمجاد. وأحيانا يحاول أن يغطّي الآخر الغربي تطوّره من خلال التعريض به وانتقاد مثالبه. خذ مثلا موقفه تجاه حرّية النساء فإنّه و خلافا لميرزا صالح الذي يسرد وضع النساء في الغرب من دون أدنى تحليل أو نقد، لا يقف مكتوف اليدين بل ينتقد وبشدة الفساد الذي منبت به النساء والغيرة المدومة لدى الرجال في الغرب ويفخر بشدة لكونه ينتمي إلى مجتمع يحرم السفور والتبرج ويصون المرأة ويحفظ لها وقارها.

٨. مقارنة الأسلوب بين تخلص الإبرير و سفرنامه ميرزاصالح الشيرازي

الف. لقد عمد رفاة الأزهرى المطّلع على فنون الأدب العربي، قديمه و حديثه، إلى تطعيم كتاب التخليص بالشواهد الشعرية و الإقتباسات القرآنية و الأمثال و الحكم و الطارف و التليد من جواهر الكلام. «فهو مشحون بفوائد الفرائد بما لا يستقصى» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٢) خذ مثلاً ما يذكره معتمداً على الحكم المشهورة عن قلة عفاف النساء الغربيات وتعارض أخلاقهن مع

الأعراف الشرقية: «و من خصالهم الرديئة: قلة عفاف كثير من نساءهم كما تقدّم و عدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة بمثل المصاحبة و المسايرة... فكأنّ نساءهم مصداق قول بعض الحكماء: لا تغتزّ بامرأة و لا تتقّ بمال و إن كثر و قال آخر: النساء حباثل الشيطان، وقال الشاعر:

تمتّع بها ما ساعفتك، و لا تكن جزوعا إذا بانت فسوف تبين
فإن هي أعطتك الليان فإنها لآخر من طلابها ستلين
و إن حلفت لا ينقض النأي عهدا فليس لمخضوب البنان يمين»
(المصدر نفسه: ١٥٣)

بينما أعرض ميرزا صالح عن كلّ ذلك لأنّه أراد أن يعطينا وثيقة تاريخية وحسب، وهي وثيقة لا تمتّ بصلة إلى لآلى الأدب الفارسي العتيّد. يقول في حديثه عن مدينة آنولا: «و من الأبنية الخيريّة في آنولا عمارة يجتمع فيها العمي الذين ولدوا عمياناً من بطون أمهاتهم، حيث يشتغلون بحياكة الزنايل، و قد سألت فتاة عمياء عن مدّة عماها فقالت: إنّي عمياء منذ ولادتي» (شيرازي، ١٣٤٧: ٣٦٤). إنّ تكرار كلمة «كور» في النصّ الفارسي للمؤلف تكشف عن عدم اهتمامه بتهذيب العبارات.

ب. لو قارنا السرد الثري عند رفاة بالشائع الرائج من النثر العربيّ في عصره لوجدناه موعلا في التسهيل وتبسيط العبارات، محاولا أن ينأى عن توشيح الكتاب بزخارف البديع: «وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته... وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار...» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٥٦)، وهذا ما نجدّه أيضاً عند ميرزا صالح حيث يتسم كتابه بلغة مرسلّة مبسّطة مقارنة بالنثر الفارسي الرائج في بداية العصر القاجاري. لكن و رغم ذلك لم يسلم أسلوبه من الإغراب في بعض المصطلحات والمفردات المستعصية: «مقيد به لباس إيران بودن را نیز از عقل دور دانستم ودر واقع گرفتار این وآن بودن و ترجیح کلاه پوست را به پرنس فرنگی دادن خوش آیند نیست...» (شيرازي، ١٣٤٧: ١٧). فقد استخدم الكاتب كلمة «پرنس» التي طبعت سهواً «پرنس» وهي تعني كلّ لباس رأسه منه، أو القلنسوة الطويلة. وهذه المفردة قليلة الاستخدام في فارسية ذلك العصر. ثمّ إنّ الكتاب مفعم ببعض التكرار المملّ والإيغال في شرح الواضحات والبديهيّات.

ج. يمتاز كتاب تخلص الإبريز بالإخراج الفنيّ الأقرب إلى الروح العلمية من حيث التبويب، وتصنيف الموضوعات والمباحث، بينما يعتمد كتاب سفرنامه على الجانب السردي الحكائي، القائم على تدوين مذكرات السفر بحسب تاريخ الأيام و تسلسل الحوادث.

د. إن ميرزا صالح الشيرازي يحدّثنا عن تفاصيل الأمكنة بملاحظاته الدقيقة ولكن بلغة تقريرية واقعية، ممزوجة ببعض الأغلاط اللغوية و الإستطرادات الموعلة في جزئيات الملامح و المعالم: «رود عظيمي مستمي بوالكه است در حوالی سبیره می گذرد و داخل بروس میشود. أولاً از سبیره معدنیات مس و آهن و نقره همه خالص نشد، بار کشتی گردیده از رود اسکندریه که در سبیره می گذرد بتوسط چند رود دیگر اجناس معدنیات مزبور را داخل برود عظیمه والکه نموده والی چهارصد فرسخ راه آمده بچند رود دیگر وارد شده...» (شيرازي، ١٣٤٧: ١٢٩). و لا يخلو نصّ رفاة من بعض الإستطرادات و الولوج في جزئيات الأمور لكن بمقدار. من ذلك قوله: «إن باريس التي هي قاعدة ملك الفرنسيين من أعظم بلاد الإفرنج بناء، و عمارة، وإن كانت عماراتها غير جيدة المادة، فهي جيدة الهندسة و الصناعة، ... إن مادتها جيدة إلا أنها ناقصة، لعدم كثرة حجر الرخام فيها، و لخلوّها عن بعض أشياء آخر.. كيف لا؟ و أساس حيطانها من أحجار النحاة، كذلك الحيطان الخارجية، و أما الداخلية فإنها تتخذ من الخشب الجيد في الغالب، و أما عواميدها فهي غالباً من النحاس» (طهطاوي، ٢٠١٢: ١٩٣ و ١٩٤) حيث يستغرق صفحة ونصف الصفحة في ذكر الجزئيات. لكن أسلوبه أتقن وأقوى من ميرزاصالح.

هـ. لا يخلو كتاب سفرنامه من أخطاء لغوية وهنات أدبية، رغم كلّ ما وصفه الآخرون باللغة السردية المعاصرة و البعيدة عن تعقيدات النثر في العصر (شهرستاني، ١٣٧٨: ٥٢). تأثّل مثلاً في نصّه الذي أوردناه في وصف نهر والكه، أو النصّ الآتي: «صد نفر سالدت و دو نفر افيسر روس، يكتفر سلطان و نايب در آنجا حاضر بود» (شيرازي، ١٣٤٧: ٦٤) وانظر إلى عباراته الطويلة الآتية: «و اما درينجا بقدریکه توانم تعريف مسکو را می کنم و چون بالفعل مشغول به تعمیر و خرابی دو سال ونیم قبل که بناپارت امپراطور فرانسه از پی تسخیر این مملکت روسیه با سپاهی انبوه آمده و شهر مسکو بعلت ورود او آتش گرفته بود اولاً...» (المصدر نفسه: ٧٨).

بينما تمتاز ألفاظ طهطاوي بالرصانة اللغوية و الأدبية و ذلك للفارق الكبير فيما تلقاه كلّ منهما من تعليم و تثقيف قبل القيام بالرحلة. أضف إلى ذلك أنّ ميرزاصالح كان رجلاً ينتمي إلى

العسكر و لم يحدثنا التاريخ عن تخرجه من مركز علمي ديني أو جامعة أو معهد علمي، كما هو شأن الأزهر الذي تلقى فيه رفاة الجانب الأوفر من تعليمه.

و. و في نفس هذا السياق نرى أنّ لغة رفاة لغة استدلالية تعتمد على سوق البراهين و الشواهد لإثبات المدعى. بينما يحفل كتاب سفرنامه بمواقف لميرزا صالح تنم عن النظرة الجازمة الخالية من أيّ استدلال علمي أو موضوعي. خذ مثلاً موقفه التكفيري من التحفيات و الملتصقات الفنية على جدران الكنائس دون الاستناد إلى الأدلة (المصدر السابق: ٦٧ و ٨٢) أو عباراته الآتية: «بادشاه عصر را كه مسخ و مبدل به خوك شده بود، شناخته، خود را بقدم او انداخته بعد از گفتگو با خليفه خود بملاحظه كليسا رفته، الحق اين نحو عبادت با بت پرستی مطلقاً تفاوتی در نظر بنده ندارد» (شيرازي، ١٣٤٧: ٦٠).

٩. النتيجة

١. لم يستطع كلٌّ من طهطاوي و ميرزا صالح ضبط نفسه تجاه تقدّم الغرب و تطوّره، فملأت الحسرة قلوبهما خاصّة عندما قارنا ذلك بما مني به الشرق من ضعف و هوان و هزال. و كان رفاة يرى أن المسلمين أولى بتلك القوة من بلاد الكفر و أنّهم أولى بالأخذ بأسباب الحضارة. وهذه كانت بداية الصدمة لأن المسار انحرف بعد ذلك. لذلك فإنّ موقفه موقف رفضي للغرب في الظاهر و تسامحي مبطن لم يتمكن أن يخفيه و هذا ممكن فهمه عن طريق قراءة عباراته و أسلوبه في الكتاب.

٢. رغم ما شاع بين عامّة المفتنين بحضارة الغرب في القرنين الماضيين من كتّاب و مفكرين إلا أنّ كلاً منهما لم يثنيا على حرية المرأة الغربية، و هذا مشترك بينهما. لكنّ الذي يميز رفاة عن ميرزا صالح، أنّ الأول كان يتطلّع إلى النهوض بالأنا الشرقي إلى مستوى الآخر الغربي من خلال الإعتماد على مقومات الحضارة و المدنيّة الشرقية -الإسلامية تحديداً- شريطة أن يتاح لها ما أتيح للحضارة الغربية من مسببات الظهور. لذلك فهو لا يفتأ يشير إلى هذه المقومات أينما ظنّ أنّه أشاد بما للغرب. أمّا ميرزا صالح فلم يكن يتوقّع لكتابه أن يكون وثيقة تاريخية اجتماعية ثقافية في هذا المجال نظراً لكونه مغموراً لم يؤت سعة من العلم و الأدب في سماء الأدب الفارسي و بين كبار المصلحين في المجتمع الإيراني. و لذلك اكتفى في كثير من الأحيان بالوصف السردّي دون التحليل

النفسي و الاجتماعي و السياسي إلا في مواقف ضئيلة مقارنة برفاعة. و لذلك يبدو لنا أكثر اندهاشا من الطهطاوي.

٣. أما بالنسبة لأسلوبية الكاتبين فإن طهطاوي كان بفضل ما تلقاه من أسباب التعليم و التفكير أوفق من زميله العسكري المغمور في انتهاج المنهج التحليلي وكتابة النثر الفني المرسل. فأخرج كتابه في دياحة رائعة و تبويب ممتاز و تصنيف تستسيغه الأذواق، و ذلك في توشيح بالآيات و الروايات و فنون الشعر التي كان هو منشدها في كثير من الأحيان، و الأمثال و الحكم. بخلاف ميرزاصالح الذي آثر أن تكون رحلته سردية حكاية يعرّج خلالها على بعض المعلومات التاريخية و الجغرافية، و لهذا فإنه يمكننا أن نستجلي في كتابه قصة أو رواية قصصية واقعية يذكر فيها لواعجه و آلامه و مكابذاته و مغامراته أحيانا بغيثها و سمينها. أما رفاعة فإنه إن ذكر قصة رحلته فهي تخلو من المواقف الفردية و التجارب الشخصية أو بث لواعج الألم إلا فيما يرتبط بجنينه إلى الوطن. ثم إن ميرزاصالح لم يخل كتابه من الإطناب المملّ و التكرار الذي لا ضرورة له. ملخص القول أنه لم يتوقع لكتابه هذا المآل و إلا لعني بتنقيح عباراته و تحلية أسلوبه.

٤. يصور طهطاوي الغرب بنمطه الأدبي القوي و يضخمه في معطياته ولكنه بصورة ضمنية يشير إلى فضل الشرق على الغرب في مظاهر تمدينه و حضارته و ثقافته خلال سطور رحلته و يحاول أن يلقي إلى المخاطب المصري أو العربي أنه من الواجب أن يبحث عن أسباب حضارته القديمة في تراثه الغني مستفيداً من حضارة الغربيين خاصة الفرنسيين. أما ميرزاصالح فهو علاوة على مغالاته في تصوير الآخر الغربي و تضخيمه في ذكر معطياته بالنسبة لأنا الشرقي الإيراني، فنادرأ ما يحاول أن يرجع المخاطب الإيراني الوطني إلى تراثه القديم المفضل على الغرب و لا يعطي صورة سلبية عن الغرب إلا اللمم.

٥. يحفل كتاب سفرنامه بالمواقف والحكايات التي مرّ بها صاحبها و لقاءاته و حواراته و مناقشاته مع الآخرين و ما أصابه من حوادث و أسقام و أفرح و أتراح، بينما أعرض رفاعة عن مثل هذه الأمور وآثر أن يكون محللاً واصفاً دون الخوض في المواقف و القصص التي تعرّض لها في رحلته و ما دار بينه و بين الآخرين من مناقشات.

الهوامش:

١. الأدب المقارن من منظور أعلام هذا الإتجاه علم يدرس تطور الآداب القومية في إطار الأدب العالمي الذي يوحد الشرق و الغرب، و هو ينطلق من وحدة السياق التاريخي لتطور آداب الشعوب (جيرمنوسكي، ٢٠٠٤: ٥٠).

٢. علم النجوم أو التكهّن بمجريات الأمور؛ ليرجع معجم الغني مادة ن ج م.

المصادر

- ابوالحسني، جواد (١٣٩٠)، «غرب از دیدگاه میرزا صالح شیرازی، نخستین روزنامه نگار ایرانی دوره قاجار»، *آزما، مرداد*، ١٣٩٠، ش ٧٩، صص ٤٤-٤٥.
- برومند، صفورا (١٣٨٤)، «انگلیس به روایت مسافران ایرانی (سه دهه اول سده ١٩م/ نیمه اول سده ١٣ق)»، *روابط خارجی*، ش ٢٢، صص ٦٥-١٠٠.
- بهار، محمدتقی (١٣٦٩)، *سبک شناسی*، چاپ پنجم، تهران: مؤسسه انتشارات امیر کبیر.
- پناهی، عباس (١٣٨٧)، «اهمیت سفارت نامه خوارزم در سنت سفرنامه نویسی عصر قاجار»، کتاب ماه تاریخ و جغرافیا، ش ١٢٨، صص ٨٦-٨٠.
- حائری، عبدالهادی، (١٣٧٢)، *نخستین رویارویی های اندیشه گران ایران*، تهران: مؤسسه انتشارات امیر کبیر.
- حسین، حسني محمود (١٩٨٣)، *أدب الرحلة عند العرب*، الطبعة الثانية، بيروت: دار الأندلس.
- رستگار، گیتی (١٣٥١)، «میرزا صالح شیرازی در سفرنامه»، *جستارهای ادبی*، ش ٣٠، صص ٢٥٧-٢٣٦.
- الزركلي، خيرالدين (٢٠٠٢)، *الأعلام*، ج ٣، الطبعة خامسة عشرة، بيروت: دار العلم للملايين.
- زيتوني، لطيف (١٩٩٦)، «السيمولوجيا و أدب الرحلات»، *عالم الفكر* الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، المجلد ٢٤، العدد ٣، صص ٢٧٦-٢٥١.
- ساسان پور، شهرزاد (١٣٨٤)، «نقد و بررسی کتاب مسافران ایرانی روسیه»، *کتاب ماه تاریخ و جغرافیا*، ش ٩٩ و ١٠٠، دی و بهمن ١٣٨٤، صص ٩١-٨٢.
- شهرستانی، سید محمد علی (١٣٧٨)، «سفرنامه میرزا صالح شیرازی»، *گنجینه اسناد*، شماره ٣٣ و ٣٤، صص ٥٩-٥١.
- شیرازی، میرزا صالح (١٣٤٧)، *سفرنامه میرزا صالح شیرازی*، به اهتمام و همکاری و مقدمه اسماعیل رائین، تصحیح و دوباره نویسی از [سید] محمد [علی] شهرستانی، تهران: انتشارات روزن.
- صوفی نیارکی نجفی، تقی (١٣٨٢)، «سفرنامه ها نخستین بازتاب ها در مواجهه با غرب جدید»، *آموزه*، ش ٢، بهار ١٣٨٢، صص ١٨٢-١٥٧.
- الصعیدی، عبدالحکم عبداللطیف (١٩٩٦)، *الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب*.
- ضيف، شوقي (١٩٨٧)، *الرحلات*، الطبع الرابع، القاهرة: دار المعارف.
- الظهراوي، رفاعة رافع (٢٠١٢)، *تخلص الإبريز في تلخيص باريز*، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة.
- علوش، سعيد (١٩٨٧)، *مدارس الأدب المقارن*، المركز الثقافي العربي، بيروت: لبنان.
- فاتح، صطاف (٢٠١٢)، «أثر أدب الرحلة في التعارف بين الحضارات، إشراف مكي عبدالكريم»، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، الجزائر.
- فهيم، حسين محمد (١٩٨٩)، *أدب الرحلات*، الكويت: عالم المعرفة.
- قربي، عزت (١٩٨٠)، *العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة*، الكويت: عالم المعرفة.

- كريميان، علي (١٣٧٧)، «ميرزا صالح شيرازی و کاغذ اخبار»، گنجینه اسناد، ش ٢٩ و ٣٠، صص ٨ - ٥. کلهر، مهدی (١٣٦٩)، «بخش فرهنگی و هنری: تصویرها و تأثیرها»، یاد، شماره ٢٠، صص ١٦٣-١٤٢. محبوبی اردکانی، حسین (١٣٧٠)، تاریخ مؤسسات تمدنی جدید در ایران، جلد اول، تهران: انتشارات و چاپ دانشگاه تهران.
- محمدحسین، محمد (١٩٧٩)، الإسلام والحضارة الغربية، بیروت: المكتب الإسلامي.
- مرادی نژاد، حسین و پرویز پژوم شریعتی (١٣٥٣)، «پژوهشی درباره فرستادن دانشجو به خارج در دوره قاجار و پهلوی»، مطالعات جامعه شناختی، دوره قدیم، ش ٤، صص ٩٠ - ١١٥.
- المعوش، سالم (٢٠١١)، الأدب العربي الحديث نماذج ونصوص، دار النهضة العربية، بیروت: لبنان.
- نجیب، ناجی (١٩٧٧)، «الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق؛ دراسة مقارنة»، فکر و فن، العدد ٣٠، صص ٧١-٤٤.
- النساج، سید حامد (١٩٨٤)، مشوار کتب الرحلة قديماً وحديثاً، مصر: مكتبة غريب.
- نوابی، عبد الحسین (١٣٦٩)، ایران و جهان از قاجاریه تا پایان عهد ناصری، تهران: مؤسسه نشر همادز.
- هلال، غنیمی (د.ت)، دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، القاهرة: نخبة مصر للطباعة والنشر.
- یاحقی، محمدجعفر (١٣٩١)، جویبار لحظهها، جریانهای ادبیات معاصر فارسی نظم و نثر، چاپ سیزدهم، تهران: انتشارات جامی.

References:

- Abolhasani, J (2011). "The West in opinion of Mirza Saleh Shirazi. The first Iranian journalist in Qajar era". Azma quarterly. No. 79. Pp. 44-45. [In Persian].
- Al-Ma'vash, S (2011). *Modern Arabic Literature: Samples and Texts*. Beirut: Lebanon: Al-Nahda Al-Arabia Publishing. [In Arabic].
- Al-Nasaj, S (1984). *Bibliography of Old and Modern Travelogues*. Egypt: Qarib Publishing. [In Arabic].
- Al-Saeedi, A (1996). *Journey in Islam: Its Kinds and Manners*. Cairo: Arab Book Library Press. [In Arabic].
- Al-Tahtawi, R (2012). *A Paris Profile, written during Tahtawi's stay in France*. 1st ed. Cairo: Hendawi institution for Education and Education. [In Arabic].
- Alloosh, S (1987). *Schools of Comparative Literature*. 1st ed. Beirut: Lebanon: The Arab Cultural Center Press. [In Arabic].
- Al-Zirikli, Kh (2002). *The Famous Writers*. VoL. 3. 15th ed. Beirut: Science for millions Press. [In Arabic].
- Bahaar, M (1990). *Stylistic*. 5th ed. Tehran: Amirkabir publishing institution. [In Persian].
- Broomand, S (2005). "Britain is narrated by Iranian Travelers (the first 3 decades of the 19th century / the first half of the 13th century)". external relations quarterly. No.22. Pp. 65-100. [In Persian].
- Daif, Sh (1987). *The Journey*. 4th ed. Cairo: Knowledge Publishing. [In Arabic].
- Fahim, H (1989). *Travelogues*. 1st ed. Kuwait: knowledge world Press. [In Arabic].
- Haeri, A (1993). *The First Encounters of Iranian Thinkers*. 1st ed. Tehran: Amirkabir Publishing institution. [In Persian].

- Hosseini, H (1983). *Travelogues and the Arabs*. 2nd ed. Beirut: Dar Al-Andalus. [In Arabic].
- Kalhor, M (1990). "Cultural and Art Section: Images and Effects". *Yad Journal*. No. 20. Pp.142-163. [In Persian].
- Karimian, A (1998). "Mirza Saleh Shirazi and Newspaper". *documents treasure (Ganjine-ye Asnad) Journal*. No. 29 & 30. Pp. 5-8. [In Persian].
- Mahbubi Ardakani, H (1991). *The History of New Civilizations in Iran*. Vol. 1. Tehran: University of Tehran Press. [In Persian].
- Mohammad Hossain, M (1979). *Islam and Western Civilization*. Beirut: Islamic Office Press. [In Arabic].
- Moradi Nejad, H. & Pajum Sharyati, P (1974). "Research on Sending Students abroad during the Qajar and Pahlavi periods". *Journal of Sociological Studies old period*. No.4. Pp. 90-115. [In Persian].
- Najib, N (1977). "The Journey to the West and the Journey to the East: A Comparative Study". *Thought & Art (Fikrun va Fa'n) magazine*. No. 30. Pp. 44-71. [In Arabic].
- Navaei, A (1990). *Iran and the World from Qajar to the end of the Nasiri era*. 1st ed. Tehran: Hamazar publishing house. [In Persian].
- Panahi, A (1999). "The Importance of Khwarazm's embassy in the Travel literature (travelogue) Tradition in Qajar era". *Monthly book of history and geography*. No. 128. Pp. 80-86. [In Persian].
- Qonaimi, H (N.D.). *The Role of comparative Literature in the Orientation of Contemporary Modern Arabic Studies*. Cairo: Egypt's Renaissance Press. [In Arabic].
- Qarani, I (1980). *Justice and Freedom at the Dawn of Modern Arabic Movement*. 1st ed. Kuwait knowledge world Press. [In Arabic].
- Rastgar, G (1972). "Mirza Saleh Shirazi in Travelogue". *Quarterly literary studies*. No. 30. Pp. 236-257. [In Persian].
- Sasanpoor, S (2005). Criticize and Examination of the Book of Iranian Travelers of Russia. *The magazine of monthly book of history and geography*. No. 99 & 100. Pp. 82-91. [In Persian].
- Fateh, S (2012). *The Effect of Travelogues in the Meeting of Civilizations. Supervised by Makki Abdulkarim*. Algeria: University of Tlemcen. [In Arabic].
- Shahrestani, s (1999). "Mirza Saleh Shirazi in Travelogue". *documents treasure (Ganjine-ye Asnad) Journal*. No. 33 & 34. Pp. 51-59. [In Persian].
- Shirazi, M (1968). *Mirza Saleh Shirazi in Travelogue*. with effort and contribution and introduction of Esmail Raeen. correction and rewriting by M.A. Shahrestani. Tehran: Roza'n Press. [In Persian].
- Soofi Niara'ki Najafi, T (2003). *Travelogues. The first Reflections in the Face of the Modern West*. *Amoozeh Journal*. No. 2. Pp. 157-182. [In Persian].
- Yahaghi, M (2012). *The Rivulet of Moments. the incidents of contemporary Persian literature. poetry and prose*. 13th ed. Tehran: Jami publisher. [In Persian].
- Zeytooni, L (1996). "Semiology and Travelogue". *World of Thought (Ala'm Al-Fekr) Journal*, published the National Cultural Assembly of art and Literature in Kuwait. vol. 24. No. 3. Pp. 251-276. [In Arabic].